مقدمة وتمهيد

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

وبعـــــــد . . .

ترجع فكرة تأليف هذا الكتاب إلى نحو عشرين عامًا مضت ، منذ كنتُ أتلقَّى العلم فى مدرسة ليون الجامعة ، وفى تلك المدينة الجميلة المطمئنة ، دَوَّنْتُ أوائل تلك الفصول ، وقد صحبتنى الأمانى و « الكراسات » فى سائر أسفارى بين ليون وچنيف ولندن وفيرنزة (فلورنسا) ، ومرت علينا معاً فترة الحرب العصيبة وأنا فى صحبة هؤلاء الفلاسفة الاثنى عشر ، ننهض تارة ونرجو رؤية النور والضياء ، وطوراً نرقد فى مثار النقع نسمع صدى صوت المدافع فى الفضاء ، إلى أن شاءت الأقدار أن يلبس هؤلاء الحكماء المتقدمون ثياب الظهور فى عالم الوجود المادى ، فلم أشأ أن أطيل حبسهم فأسلمت بيدى تلك الأوراق ، التى أصبحت فى نظرى «معتَّقة صفراء» دقيقة الجسم ، ضخمة البخار ، وهكذا برز إلى عالم البعث والنشور اثنا عشر فيلسوفًا من المشارقة والمغاربة ، وقد تدثَّر كلٌ بالقباء أو المرقعة أو المسوح أو الدراعة أو الجبة التى تليق به لدى مثوله بين أيدى قراء هذا الزمان .

فإلى الأمام أيها السادة الحكماء ! ولا تعتبوا على هذا الضعيف ، الذى ألجأكم إلى الخروج من كهف الماضى السحيق ، ودعاكم إلى الظهور بعد الخفاء ، فى عالم الهدوء والسكون إلى عالم الجلبة والضوضاء ، فإن معظم أهل هذا الزمان لم يَشْرُفوا بمعرفتكم ، وسوف تقع أسماؤكم وألقابكم وكُناكم من أسماعهم وَقْعَ الشيء الجديد الغريب ، وسوف يجادلون فى حقيقة وجودكم وفى قيمة أفكاركم ، وينكرون عليكم آراءكم التى بيَّضتم سواد ليالى أعماركم فى تصورها وتحويرها ، وتهذيبها وتحريرها ، وسوف يمر البعض بكم متعجبًا من هؤلاء الفلاسفة المتقدمين الذين عاشوا وتأمَّلوا وفسَّروا الكون ، وعلَّلوا الحوادث قبلَ كائنْتْ ، ونيتْشَهْ ، وشوبنهور ، وسبنسر ، وستوارت ميل ، وأوجست كونت ، ورينان ، ولن يخطر ببال هؤلاء القراء المتعجبين أنه لولاكم ، أيها الفلاسفة الأعزة ! من الكندى ، إلى ابن رشد ، لم يكن لفيلسوف أوروبى حديث أن يظهر فى عالم الوجود ،

وإنكم أنتم الذين حفظتم تلك الشعلة المقدسة التى خلفها سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فى مغاور الماضى السحيق ، وزدتموها نارًا حتى أسلمتموها مضيئة وهَّاجة إلى فلاسفة أوروبا المحْدَثين ، وكنتم لتلك الشعلة الإلهية كرامًا حافظين .

على أن أقداركم لم تَخْفَ على علماء أوروبا وكُتَّابها ومؤرخيها فقد عنى مئات من مؤلفى تلك القارة السعيدة بالبحث عن آثاركم وتدوين أخباركم ونشر أفكاركم التى هى من أغلى وأثمن الحلقات فى سلسلة التفكير الإنسانى ، فحرصوا على مخطوطاتكم وبالغوا فى رفع قيمتها وفى السعى لاقتنائها ولم يضنُّوا بالمال والعمر والعلم فى سبيل إحياء ذكركم ، فاستفادوا من وراء بحثهم وتنقيبهم وربحت تجارتهم ! ولكن الذى أنكركم أو ، على القليل ، شَكَّ فى وجودكم العقلى وحَطَّ من أقداركم هم أحفادكم وأخلافكم وورثة حكمتكم وأخلق الناس بالمحافظة على ذكراكم وتمجيد أعمالكم وهم الذين يقرأون ويكتبون ويفكرون بتلك اللغة العربية التى دوَّنتم بها كتبكم الخالدة فى بغداد ودمشق ومصر والمغرب ، والأندلس ، ويسأل هؤلاء الورثة الذين لايستحقون تلك التَّركة الثمينة :

هل لنا حقًا أجداد فى الفكر والعقل ؟ .

وهل لهؤلاء الأجداد قيمة ، فى ميدان العلم الحديث ، وأين كتبهم ؟ .

وما مكانتهم بين ظهرانىِّ الفلاسفة الذين نقرأ تراجمهم ونرى صورهم ونعثر بشذور من أقوالهم فى الكتب والمجلات والصحف ؟ .

ولأجل الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة أَلَّفْتُ هذا الكتاب ، للتدليل على فضل هؤلاء المتقدمين ، ولتعيين مكانتهم على حقيقتها بين فلاسفة العالم ، ليعلم المرتابُ والمتردِّد والمقلِّد أن تلك المدنية العظيمة التى ظهرت فى الوجود منذ أربعة عشر قرنًا ، لم تكن مدنيَّةَ حرب وطعن ومادة ، بل كانت مدنية عقل وعلم وفكر عميق ، وأن تلك المدنية التى نشأت فى قلب الصحراء ونشرت أجنحتها إلى أقاصى الصين شرقًا وأقاصى أوروبا وأفريقيا غربًا ، لم تكن مدنية السيف والمدفع بل كانت مدنية القلم والقرطاس والكتاب ، وأن عقيدة هؤلاء الفلاسفة لم تمنعهم من الدرس والبحث والتنقيب عن الحقيقة .

بل إن تلك العقيدة نفسها هى التى استحثَّتهم على السير فى جميع دروب الفكر البشرى فكانت الحقيقة ضالة كل منهم ينفق العمر والمال والفكر فى اقتفاء أثرها ويلتقطها أنَّى وجدها ، وإن هؤلاء الأقوياء من أصحاب التيجان والعروش بذلوا أنفَسَ وأعزَّ ما كان لديهم من المال والجاه والنفوذ فى إيجاد الفلسفة فى بلاد الشرق العربى والغرب الإسلامى وإن من حث على العلم هو تلك العقيدة التى ظهرت فى الصحراء على لسان (محمد) وأول من شجَّع على نشر الحكمة هم هؤلاء الخلفاء والملوك من الغزاة والمجاهدين من ذوى قرباه وخلفائه وصحابته والتابعين .

وأجدر الناس بتفهُّم هذا القول هم الفريق الذي ظهر فى الزمن الأخير بمظهر تحقير الفكر الشرقى الإسلامى والحط من أقدار رجاله المتميزين والطعن على علومهم وآدابهم وحكمتهم والانتقاص من آثارهم التى كانوا بها يهتدون ، فهذا الفريق من الخلق يعمل على هدم آثار السلف الصالح فى العقل والفكر بمعْوَل التعصب الذميم والمنفعة المادية ، وإلا فكيف يستبيح أديب أو أريب أو عالم أن يقلل من قيمة أسلافه فى الثقافة الإنسانية ؟ وهل استباح كاتب أوروبى ، من الذين يدعى هؤلاء الناس تقليدهم ، لنفسه الحطَّ من قدر أسلافه فى العلم والفلسفة لمجرد قِدَمِهم ومُضىِّ الأجيال الطويلة على اختفائهم من عالم الوجود المادى ؟ .

بل الأمر على النقيض ، إذ نرى النوابغ من الكتَّاب والمؤلفين يعملون أبدًا على إحياء سيَر الأقدمين والإشادة بذكرهم ونشر كتبهم وتزيينها وشرحها وتفسيرها ومحاولة رد معظم الفضل فى الحياة العقلية الحديثة إليهم ، ولا يوجد فيلسوف أوروبى لم يكن له «مَثَلٌ أعلى» من هؤلاء الحكماء الأقدمين يحذو حذوه وينسج على منواله ويستضيء بنوره ، وهم دائمًا دائبون على إحياء أعياد موالدهم وتخليد ذكر أيامهم الكبرى بظهور مؤلفاتهم وعرفان جميلهم وفضلهم على الإنسانية .

ومن هؤلاء القوم فريق يدعى أنهم مجددون ويذمون كل قديم لمجرد قدَمه ويتهوَّسون بعبادة كل جديد لمجرد جدَّته ، على أنهم لو عقلوا لعلموا أنَ مَنَ لاقديم له لاجديد له ، وأن الشرف والنبل يرجعان إلى عراقة الأصل ، وأن

أفخم البنيانُ يشاد حتمًا على أمتن أساس ، فكيف يكون لهم عماد دون أن يتصلوا بآثار الأجداد والأمة التى لا ماضى لها ليس لها حاضر ولا مستقبل ؟ .

على أننا لا نعتبر «الإسلام» فى تسمية هذا الكتاب الضئيل دينًا أو عقيدة حسب ، بل نعتبره مدنية كاملة شاملة ، حافلة بكل معانى الحياة العقلية والثقافة الأدبية ، وعلى هذا القياس الصحيح يكون الفلاسفة الإسرائيليون والمسيحيون بل أحرار الفكر ممن نشأوا وترعرعوا فى كَنَف المدنية الإسلامية حكماء إسلاميين بحكم الفكر الوسط والثروة العقلية المشتَركة ، وعلى هذه الخطة الحكيمة سار الخلفاء العباسيون والأمويون والفاطميون فى المشرق والمغرب ، فقرَّبوا الكتَّاب والمفكرين والأدباء من غير المسلمين ودونوا لهم الدواوين ، وقلدوهم أسمى مناصب الدولة ، وهؤلاء الخلفاء العظماء شرحوا صدورهم وفتحوا قصورهم للفلاسفة من أهل سائر الأديان ، بينما كان أباطرة وملوك وأمراء غيرهم فى ممالك أخرى يصلبون ويعذبون ويشنقون ويحرقون رجالاً ثبتت لهم العبقرية فى الفكر والزعامة فى العلم فيما تلا من الأيام .

وسوف يجد القارئ بين دفتى هذا الكتاب فصلاً مسهبًا فى الصوفية بمناسبة ترجمة الشيخ «محيي الدين بن العربي» الذى قد يتردد بعض المؤلفين فى وضعه فى صف الفلاسفة على أنهم لا يترددون فى عد الغزالى فيلسوفًا لمجرد كتابته فى الفلسفة ، بغض الطرف عن الغاية التى كان يقصد إليها ، على أن ابن العربى أحق بوصف الفيلسوف من الغزالى ، لأن التصوف نوع من الفلسفة إذ هو يرسم خطة للحياة الإنسانية وصاحبه يبحث عن الحقيقة ويسعى فى حل لغز الحياة وتفهم أسمى أسرار الكون ، ولا تخرج الفلسفة فى أكمل معانيها عن حدود هذه الغايات ، فضلاً عن أن ابن العربى تفرغ لمباحثه وأخلص فيها ودقق وحقق ، وأمعن وتعمق ، ووقف حياته ووجوده على غرض واحد لم يتعده ، وقد بلغ فيه درجة من أسمى الدرجات ، بل إن الكتاب الوحيد الذى اشتهر به سيدنا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى وهو «إحياء العلوم» يعد فى نظر الكثيرين من الأخصائيين فى الدرجة الثانية

بالنسبة لكتاب «الفتوحات المكية» تأليف ابن العربى ، وقد كانت لمحيي الدين شخصية مدركة متميزة ، سادت تاريخ التصوف الإسلامى الحديث ، لأنه المحيي غير مدافع ، والشيخ الأكبر دون منازع عند أهل السنة من العرب والترك ، وعند أهل الإمامة من الفرس .

ولما كان العرب واليهود فرعين لدوحة واحدة هى الدوحة السامية ، والشعبان متفقين أصلا ومدنية وتاريخًا ، ويكاد اللسانان العربى والعبرانى يتحدان ، ولولا ما امتازت به اللغة العربية من ظهور لهجة قريش وقدرتها على الحياة كانت مناحى الفكر لديهما متحدة .

بيد أن الفرق بين الشريعتين الموسوية والمحمدية ، قد ظهر ظهوراً جليًا فى قابلية كل منهما فى البحث الفلسفى ، وقد ظهر فى كل عهد من العهود نوابغ إسرائيليون يعدون فى مقدمة الشعوب التى ينتمون إليها وطنًا لا عقيدة ، وفى عصرنا هذا عبقريون منهم أحياء ومنهم من قضى نحبه أمثال «كارل ماركس» و «أينشتين» و «برجسون» وعشرات لهم فى عالم الفكر البشرى ذكر باق .

وقد حصر حكماء بنى إسرائيل همهم فى العصور الأولى لظهور ملتهم فى التهديد والوعيد وتعليم الحكمة الربانية وقالوا بوحدانية الله ووحدة خلقه ووحدة سائر الكائنات فكان بحثهم قاصراً على الذات ولم يتعد إلى الصفات التى يعتبرها فلاسفة الإسلام مظاهر للذات ولم يتجه نظر أحد من هؤلاء الحكماء إلى البحث فى علم النفس البشرية وحقيقتها فكأن فلسفتهم كانت عبارة عن الاعتقاد المطلق بالله بدون بحث علمى أو طريقة فلسفية مع أن مصادر العلوم الربانية والنفسانية كانت متوافرة لديهم فى كتب الهنود والإغريق .

لم يعرف فلاسفة اليهود علم المنطق ولم يسلكوا سبيل البراهين والأدلة والحجج أو أنهم عرفوه ولم يلجأوا إليه واكتفوا فى تأييد آرائهم بالإسناد إلى الوحى .

أما عن نظرية الخير والشر فى الحكمة الإسرائيلية فقد قال فلاسفة اليهود : « إن الله سبحانه هو خير محض ولا يصدر عنه إلا الخير » ، وأثبتوا ذلك أو

حاولوا إثباته بما ورد فى الكتاب المقدس . أما الشر فقالوا : إنه من صنع البشر وإنه ثمرة لتغلُّب المادة على العقل أو انتصار مبدأ المادة على مبدأ العقل ، وقد نسبوا الشر للإنسان خشية أن يؤدى بهم الكلام فيه إلى الخروج ، وقد أدت بهم نسبة صدور الشر إلى الإنسان إلى القول بأنه حر فى إرادته وتصرفاته ويجب عليه أن يجعل أعماله منطبقة على مبدأ الخير الأسمى لئلا يقهره المبدأ المادى فيصير أسيراً للشر ، وهذا هو مبدأ حرية الإرادة المعروف لعهدنا هذا باسم (Libre Arbitre) أو مبدأ الخيار فى الحياة باعتبار الإنسان مخيراً لا مسيراً أن مبدأ الخيار فى الحياة لم يظهر فى الفلسفة الحديثة إلا بعد تطاحن أجيال فى العقائد والأفكار ، ولكن اليهود لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث بل استندوا إلى نصوص من الكتاب المقدس (التوراة) حيث جاء بقول صريح على لسان الله فى مخاطبة الإنسان :

« انظر ! قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير ، والموت والشر » .

ومعظم هذه الحال راجع إلى مزاج النفس «السامية» التى صدق (رينان) كثيراً فى وصفها فى عرض كلامه فى كتابه الممتع فى «تاريخ اللغات السامية» .

والمشاهد عند حكماء اليهود ، الذين لايمكن أن نطلق عليهم اسم الفلاسفة ، إنهم كانوا إذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة يرجعونها إلى دائرة الدين ، ويجعلون الحكم فيها وعليها فوق مدارك العقل البشرى .

ونجد هذه الحال ممثلة أجلى تمثيل فى سفر أيوب ، من أسفار «العهد القديم» إذ اجتمع الحكماء وأخذوا يبحثون فى مسألة العناية الإلهية والقضاء والقدر ، فظهر الله فى عاصفة لأيوب وأظهر له قصر المدارك البشرية عن الوقوف على أسرار الطبيعة ورفع الستار عن وجه الحقيقة واكتناه حكمة القضاء ووجوب خضوع الإنسان بعد إقراره بعجزه لله والتسليم بإرادته مما يؤدى بتوجيه القضايا الفلسفية نحو جهات الاعتقاد .

بيد أن امتزاج اليهود بأهل بابل والفرس والكلدان ساعد على تأثر الحكمة الإسرائيلية بأفكار وعقائد هؤلاء الغزاة الذين هم من جنس (آري) .

فإن الفرس يقولون بوحدانية الله ، ويبغضون الوثنية كما ورد فى كتابهم (الزنداڤستا) على أن الفرس ، وإن كانوا من جنس آرى فان أسيويتهم (نسبتهم

إلى آسيا) تغلبت على آريتهم فلم يبلغوا من الفلسفة شأوًا يستفيض منه نور على عقول حكماء بنى إسرائيل ، فبقيت كتب هؤلاء بعد تقربهم وامتزاجهم بالفرس خالية من المباحث النظرية وما وراء الطبيعة خلوها من ذلك من قبل .

وما زال اليهود على ذلك الجمود الفلسفى والاكتفاء بالبقاء فى دائرة الدين إلى أن تغلب اليونان على سوريا ، وانتشرت فيها فلسفتهم وآدابهم ، فأدركت اليهود الغيرة من علو كعب فاتحى بلادهم فى المباحث التى لم يطرقوها ، على أنهم لم يجرأوا على البحث الحر الصريح القوى ، بل عادوا إلى الكتب المقدسة يشرحونها معتمدين فى ذلك على بعض مبادىء الافلاطونية المستحدثة التى كانت مزهرة فى الاسكندرية ، فلم يتعدوا أفكار فيثاغورس وافلاطون

وقد أدخل بعض حكمائهم فى روعهم أن لعقائد بنى اسرائيل أثراً فى تكوين آراء اكابر الفلاسفة اليونان أمثال فيثاغورس وافلاطون وارسطوطاليس ، لأنهم فى زعمهم مروا فى أسفارهم على بلاد بنى اسرائيل وأخذوا العلم والحكمة عن حكمائهم

وكان بين طوائف اليهود طائفة تشبه الصوفية عند المسلمين ، وهم الذين نبغوا من الفريسيين ، وكان مذهبهم القول بالمبادىء والآداب والعمل بها ، كالزهد والعفة والتقشف والتقوى ونبغت طائفة أخرى وهى الصدوقية لكنها شطت وجمحت ، فانكر ذووها خلود النفس وتدخل العناية الالهية فى أعمال البشر معتمدين فى هذا الانكار على أنه ينافى نظرية الاختيار الانسانى

ونشأت من فرقة الصدوقية فئة اسمها الأسينية (من المواساة والطب) وقد جعلوا فلسفتهم نوعًا من الاشتراكية ، وعاشوا بمقتضى مبادئهم ، كتبادل الحب بين الافراد ، وبغض الملاذ ، والتغلب على هوى النفس ، واحتقار الغنى ، ولا يزال فى أرض فلسطين إلى الآن وقبل ظهور «الصهيونية» بمظهرها الأخير فى ظلال نظرية « الوطن القومى» مستعمرات اسرائيلية تسير على مبدأ تلك الفرقة ، بعد أن عفت آثارها ، وانقطعت أخبارها إلا من الكتب

وقد قاسى اليهود من الظلم والاضطهاد فى عهد الرومان والقرون الأوّل من العصر الدينى الأوروبى ما أضعفهم واطفأ شعلة ذكائهم ، فانصرفوا إلى المجادلات الدينية والمجاهدة فى سبيل البقاء فى أقطار العالم بعد أن ذهبت دولتهم وتشتت شملهم وفقدوا عاصمة ملكهم لذا تجد (المشنة) و (التلمود) خاليين من الابحاث الفلسفية أو الكلام فيما وراء الطبيعة

وما زال اليهود كذلك من الجهة العقلية حتى نزحوا الى بلاد العرب قبل الاسلام فطابت لهم الاقامة فى الجزيرة العربية فى عهد الجاهلية ، وتوافرت بينهم وبين تلك القبائل أسباب الألفة لما بين اليهود والعرب من روابط الجنس السامى ، واللغتين العربية والعبرانية اللتين هما من فصيلة واحدة

***

ولما ظهر الاسلام لم تكن وطأته ثقيلة على اليهود فانتعشوا ، وانصرف فريق منهم الى الاشتغال بالعلم والأدب ، ثم علا نجمهم فى صدر الاسلام اذ أصبح كثير من نابغيهم موضع ثقة الخلفاء وعنايتهم أمثال سعيد بن يعقوب الفيومى وصموئيل بن حفنى

وكان سعيد بن يعقوب الفيومى المذكور ، ويعرفه اليهود باسم سعدية بن يوسف المصرى ، رئيس مدرسة (سورا) القريبة من بغداد ، وهو أول من ألف من اليهود كتاباً باللغة العربية ونشره فى موضوع العقائد والعقليات ، ومحور هذا الكتاب الذى يعد فتحاً جديداً لليهود ، كما يعد دستوراً لفرقة الربانية وأصحاب التلمود ، وجوب اتباع أحكام العقل فى العقائد وجواز فحص القضايا الدينية ، لأن العقل الصحيح خليق بأن يرشد صاحبه الى الحقائق التى ينقلها الوحى الى أصحاب النبوة ، وان تعليل الوحى هو الرغبة فى وصول الانسان بسرعة الى ادراك الحقائق العليا التى لو ترك البحث فيها للعقل وحده لاحتاج فى الوصول اليها وادراكها لعناء عظيم وزمن طويل

ونحن نعد سعيداً بن يعقوب هـذا من فلاسفة الدنيا بحق ، ولكنه لم يعش حتى يدرك ازدهار الفلسفة العربية فى بلاد الأندلس ، التى كان من أثرها فى يهود اسبانيا أنفسهم ، أنهم ثاروا على مدرسة (سورا) وأرادوا أن يستبدلوا بها مدرسة جديدة

يجعلونها فى قرطبة ، وطن ابن رشد ، ويلقنون فيها ، على أيدى رجال من خيار علمائهم ، العلوم والفلسفة وفنون الأدب ، التى أهملها يهود الشرق

فقامت تلك المدرسة فى قرطبة فعلاً ، وأمها الطلاب من كل فج عميق ، ونبغ منها بعض الأساتذة الذين ألفوا فى فلسفة المشائين اليونانية ، ولا تزال بعض كتبهم فى مكاتب أوربا ، وللخليفة عبد الرحمن الثالث معظم الفضل فى نفع هذه المدرسة وتعظيم شأنها

ومن فطاحل من نبغ فى هذه المدرسة ، وقد ورد اسمه مراراً فى هذا الكتاب ، وفى كتاب الاستاذ الاسرائيلى « مَنك » الحكيم موسى بن ميمون المعروف عند كتاب الافرنج بميمونيد وهو من أهل القرن الحادى عشر للمسيح ، ويرجع الفضل فى تثقيفه وتهذيبه الى حكماء العرب ، بل انه نسج على منوالهم فى رغبته فى الجمع بين فلسفة ارسطوطاليس والشريعة الموسوية مع اخضاع النظر لأحكام العقل والمنطق ، وقد اضطهد المسيحيون الاسبان هذا الحكيم الاسرائيلى فيمن اضطهدوا من اليهود بعد زوال دولة العرب ، فلجأ الى مصر فى عهد السلطان المجاهد فخر الاسلام صلاح الدين الأيوبى ، فعرف قدره وقربهُ وجعله طبيبه الخاص ولا غرابة فان هذا الحكيم كان يسمى موسى الثانى أو أفلاطون اليهود

لقد اعتبر كثير من علماء المشرقيات دين الاسلام مدنية ذات يقظة ونهضة ووثوب بدأت بظهور الاسلام ونمت فى ظل فتوحه واستكملت قوتها بعد أن شملت كثيراً من شعوب الشرق والغرب ، هذا لأن الكتاب المنزل على أفصح العرب لم يكن كتاب دين حسب بل انه كان مصدراً ومرجعاً لنحو ثلثمائة علم فى الشرع ، واللغة ، والتاريخ والأدب ، والطبيعة ، والفلك ، والفلسفة ، وغيرها ومعظم تلك العلوم نشأ من القرآن نفسه واستنبطه العلماء من نصوصه وكثير منها تولد خدمة للقرآن ويسمى هذا النوع من العلوم « وسائط » أو « وسائل »

وقد كان لذلك الكتاب أثر شديد فى أصحابه ، وقد شمل شريعة ، وقانوناً ، وأنظمة

سياسية واجتماعية ومدنية ، وشيء من هذا لم يوجد فى كتاب سواه بل ان غيره من الكتب ينطوى على تعاليم لمصلحة الحياة الآخرة

وكثير جداً من نصوص الكتاب المنزل على أفصح العرب يحث أصحابه على طلب العلم والنظر والتأمل والتفكير فى خلق السموات والأرض ، وأنظمة الكواكب والأجرام العلوية واختلاف الليل والنهار ، وتغير الرياح ، وعجائب البحار ومعجزة خلق الانسان وتطوره وتميزه بالعقل والادراك وتفضيله على سائر الكائنات وتسخير الجماد والنبات والحيوان لخدمته فيما ينفعه ويرقى شئونه فى سائر ناحيات الحياة المادية والأدبية عدا عما ورد فى هذا الكتاب من حوادث التاريخ وأخبار الأمم البائدة والباقية ، فكان من المحتم أن تتفتح أذهان تلك الأمم التى انتحلت هذه العقيدة ، واهتدت بهدى كتابها

وفى معترك تلك الحياة الغنية بالفكر والعلم والتأمل وتنازع البقاء بين القديم والجديد ولدت الفلسفة الاسلامية فكان الفرق بين اليونان والعرب ، أن اليونان تفلسفوا فى وثنيتهم فلما دانوا بدين منزل هو المسيحية السمحاء زالت فلسفتهم وانقرض حكماؤهم لشدة المعارضة بين عقيدتهم الجديدة والفلسفة ، أما العرب فقد كانوا فى جاهليتهم ووثنيتهم أبعد الناس من الفلسفة مع معاصرتهم لليونان من أقدم الأزمنه ، فلما جاءهم الكتاب المنزل على أفصح العرب أخرجهم من ظلمات الجاهلية والوثنية ومن دياجير الجمود الفكرى أيضاً وحثهم على الدرس والبحث والنظر ومهد لهم سبيل الفلسفة

وانقضى القرن الأول وثلث القرن الثانى من صدر الاسلام فى الاستعداد والتجهيز الى أن جاء العصر العباسى الأول الذى يعد العصر الذهبى للاسلام وقد دام مائة عام من ١٣٢ هـ الى ٢٣٢ هـ وفى هـذا العصر الذهبى بلغت دولة الاسلام قمة مجدها فى المدنية والغنى والسيادة ، وفى تلك المائة نشأ معظم العلوم الاسلامية ونقلت العلوم الأجنبية الى اللغة العربية ، وكانت بغداد فى ذلك العهد أشبه بباريس فى عهد لويس الرابع عشر ، فكانت قصور الخلفاء آهلة بالعلماء والأطباء والأدباء والشعراء ، وكانت سيادة العباسيين على العالم الاسلامى شاملة سائر الأقطار وكانت أوربا فى ذلك الوقت

وهو النصف الأخير من القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن فى غيابة الجهل والوحشية حتى ان مؤرخى أور بأنفسهم يسمون هذا العصر وما سبقه وما لحقه بالقرون المظلمة (The Dark Ages)

على أن نهضة الاسلام لم تكن قاصرة على الأمم التى اعتنقت هذا الدين بل كانت النهضة شاملة للشرق كله ، كأن المبعث هز أركان ذلك الجزء من الكرة الأرضيه فهب من سباته الذى مضت عليه الأجيال المتراكمة وأخذ ينفض عن نفسه غبار خمول الأجيال السابقة ، فنهض الفرس والترك والتتار والهنود حتى أهل الصين واليابان فانهم هبوا للاصلاح الأدبى فى أثناء ذلك العصر العباسى أو بعده بقليل ، فكانت حركة الاسلام كهزات الزلازل تسير فى مناطق معينة وتنتقل فى دوائر محدودة ولا يزال مؤرخو الآداب الصينية يذكرون نهضة فحول شعرائهم فى القرنين التاسع والعاشر للمسيح فى عهد امبراطورهم ابن السماء « تنغ » واشتغل اليابانيون فى ذلك العصر أيضاً بتهذيب اللغة اليابانية وتنظيم الآداب الاجتماعية وظهرت فيهم عبقرية الفنون ، فكان منهم الشعراء والأدباء والمصورون والمثالون

وهكذا ما فتىء المشرقان الأقصى والأدنى يتأثران بحركة النهضة التى تظهر فى احدهما فيكون لها صدى فى الآخر ، وما صدق على القرن التاسع المسيحى ، صدق أيضاً على نهضة القرن التاسع عشر فى الشرقين الأقصى والأدنى

ومن مميزات هذا العصر العباسى اشتغال الخلفاء والأمراء بالعلم والأدب ، وأخبار المنصور والرشيد والمأمون وأقاربهم ووزرائهم وشعرائهم تملأ كتب الأدب والتاريخ العربى فكان من حياتهم أعظم دافع لاشتغال الرعية بطلب العلم والنبوغ فيه

ومن مفاخر هذا العهد اطلاق الفكر من قيود التقليد حتى تعددت البدع وتفرقت الفرق ، وكثرت النحل ، وكان أكثر الخلفاء تسامحاً فى الدين ، المأمون الذى بلغ به تسامحه أنه انتصر للمعتزلة فى القول بخلق القرآن ، وكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية لا يكره الرجل على معتقد أو مذهب ، وقد اجتمع ستة اخوة « لأبى جعد » اثنان منهما يتشيعان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان وكلهم تحت سقف واحد

أما الخلفاء الذين اهتموا بنقل العلوم الأجنبية أو الدخيلة من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية فهم : المنصور وكان اهتمامه بالفلك والطب ، والرشيد ونقل فى أيامه كتاب « المجسطى » فى الرياضيات ، ثم المأمون وهو الذى اهتم بنقل الفلسفة والمنطق بصفة خاصة وسائر العلوم بصفة عامة ، وقد بلغت الكتب التى نقلت فى ذلك العصر مئات اكثرها من اليونانية منها :

٨ — فى الفلسة والأدب لأفلاطون ١٩ — فى الفلسفه والمنطق لأرسطو
١٠ — فى الطب لابقراط ٤٨ — فى الطب لجالينوس
٢٠ — (واكثرها فى الرياضيات والفلك) لاقليدس وأرخميدس و بطليموس وغيرهم
٢٠ — من الفارسية فى التاريخ والأدب
٣٠ — من اللغة السنسكريتية فى الرياضيات والطب والفلك والأدب
٢٠ — عن السريانية والنبطية ، فى الفلاحة والزراعة والسحر والطلاسم
٢٠ — عن اللاتينية والعبرانية فى مختلف العلوم والآداب والفنون

أما الذين نقلوا تلك العلوم من اللغات الأجنبية الى العربية فهم :

١ — آل بختيشوع من أولاد جرجيوس بن بختيشوع السريانى النيسطورى ، طبيب الخليفة المنصور
٢ — آل حنين سلالة حنين بن اسحاق العبادى شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة
٣ — حبيش الأعسم الدمشقى ابن أخت حنين
٤ — قسطا بن لوقا البعلبكى من نصارى الشام
٥ — آل ماسرجويه اليهودى السريانى ٦ — آل ثابت الحرانى من الصابئة
٧ — أبو بشر متى بن يونس ٨ — يحيى بن عدى
٩ — اسطفان بن باسيلى ١٠ — موسى بن خالد

وهؤلاء نقلوا العلوم من اليونانية والسريانية الى العربية

أما نقلة العلم من الفارسية الى العربية فهم :

١ — ابن المقفع ٢ — آل نوبخت ، وكبيرهم نوبخت وابنه الفضل
٣ — موسى ويوسف ولدا خالد ٤ — على بن زياد التيمى
٥ — الحسن بن سهل ٦ — البلاذرى احمد بن يحيى
٧ — اسحاق بن يزيد

ومن الذين نقلوا عن اللغة السنسكريتية :

١ – منكه الهندى ٢ – ابن دهن الهندى

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية :

١ – ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة أهمها كتاب « الفلاحة النبطية »

وظاهر مما تقدم أن المسلمين فى عصرهم الذهبى نقلوا الى لسانهم معظم ما كان شائعاً من العلم والفلسفة والطب والفلك والرياضيات والآداب ، واتخذوا عن كل أمة أحسن ما لديها ولكنهم اختاروا من اليونان فلسفتهم وتركوا آدابهم ، وفنونهم لأسباب يطول شرحها ووفيناها حقها من البحث فى كتابنا « الشهاب الراصد » ص ١٦٠ وما بعدها عند الكلام على المقارنة بين العرب واليونان والرومان

وقد كانت تلك المؤلفات التى نقلت إلى اللغة العربية هى النواة التى نبتت ونمت ثم أزهرت وأثمرت وأتت بأطيب الفوائد للمسلمين وغيرهم ممن اندمجوا فى مدنيتهم خلال الأربعة عشر قرناً منذ ظهر الاسلام إلى الآن

كان العصر العباسى الأول عصر الغرس و بذر البزور ، فجاء العصر الثانى للحصاد وجنى الثمار و يجدر بنا أن نرد الفضل إلى ذويه ونعترف بسرور وعن طيب خاطر بأن الذين اشتغلوا بنقل العلم والفلسفة فى العصر العباسى الأول كان معظمهم من أدباء أهل الكتاب من غير المسلمين فلما تم النقل تقدم المسلمون الى العمل فكان أسبقهم يعقوب ابن اسحق الكندى الذى بدأنا بترجمته فى مفتتح هذا السِّفر الضئيل وهو من أبناء القرن الثالث الهجرى

ومن عجيب الاتفاق أن هذا العصر العباسى الثانى كان زمنه مائة سنة كسابقه تبدأ بآخر الثلث الأول من القرن الثالث الهجرى وتنتهى بانتهاء الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى . ثم بدأ العصر العباسى الثالث (٣٣٤ – ٤٧٤ هـ) وهو عصر ابن سينا واخوان الصفا والغزالى .

وفى العصر العباسى الرابع انتقلت تلك العلوم الدخيلة إلى بلاد الأندلس وذلك بعد ظهور رسائل اخوان الصفا بمائة عام ، وكان الفضل فى ذلك لأبى الحكم عمرو بن

عبد الرحمن الكرمانى القرطبى الذى رحل من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم وعاد إلى بلاده حاملاً نسخة من تلك الرسائل ، فتعلق الأندلسيون بالفلسفة وأحبوها واستغرقوا فى درسها وقاسى بعضهم الشدائد فى سبيلها كما هو مفصل فى كلامنا على ابن رشد ، وفى تلك البلاد ظهر ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وابن خلدون وغيرهم من الفلاسفة والحكماء والأطباء والرياضيين والفلكيين والكيميائيين ممن ملأت شهرتهم الخافقين

و بانقضاء دولة الإسلام فى الأندلس قضى على الفلسفة أيضاً ولم تقم لها بعد فى ممالك الإسلام قائمة إلى أن ظهر محمد جمال الدين الحسينى الأفغانى المتوفى فى آخر القرن الماضى

ومما هو جدير بالذكر أن ظهور الفلسفة ونموها كان تابعاً لقوة الدين الاسلامى وشدة بأسه وسعة انتشاره ، فلما ضعفت العقائد الدينية ضعفت المباحث العقلية التى كانت تستدعيها تلك العقائد ، فكأن دين الاسلام بضد غيره من الأديان ، كان يغذى الفلسفة ويقويها ويشد أزرها وقد لاحظ الأستاذ « رينان » فى بعض مؤلفاته هذه الظاهرة العجيبة وهى هبوط الفلسفه فى أوروبا كلما قويت شوكة الدين ، وانتعاش الفلسفة بعد ذلك عقيب تدهور العقائد الدينية فى أوروبا .

فان الفلسفة الأوروبية الحديثة لم تر نور الشمس إلا فى القرن السابع عشر ومن بعد أن تحللت قيود المسيحية السمحاء واندثرت معالم المظالم التى كانت تتحفز للقضاء على كل مفكر حر وما حدث فى اسبانيا عن يد محاكم التفتيش وفى ايطاليا ضد «جاليليه» وأمثاله ، بل فى سويسرا البروتستانتية حيث أمر « كالفن » الشهير باحراق واعدام العالم «ميشيل سرفيه» بعد طول التعذيب والسجن ، وكانت جريمته فى نظر «كالفن» انه سبق «هارفى» الانجليزى الى اكتشاف الدورة الدموية فى جسم الانسان

فظن « كالفن » أن فى ذلك ما يخالف الدين فنكل به ما شاء تسامحه (! ؟) ولم يجد أبناء الأجيال الحاضرة وسيلة للتكفير عن ذنب أمامهم الورع « كالفن » سوى نصب تمثال من المرمر فى قرية (انماس) على أبواب جنيف يمثل ذلك العالم الطبيعى «مشيل سرفيه» مقيداً بسلاسل السجن ومتدثراً بثياب بالية وقد دب فى كيانه البدنى دبيب النحول والهزال بعد أن أصبح فريسة لليأس، والألم ولذعات القمل !

لقد كانت الفلسفة من قديم الزمان مقيدة بالنظم التى وضعها المعلم الأول « أرسطو » وهى : المنطق ، والأخلاق ، والالهيات وما زالت كذلك الى أن ظهر « ديكارت » فشاد بناء الفلسفة الحديثة على قاعدة البحث بطريق افتراض الشك للوصول الى اليقين ثم توسع فى تطبيق تلك القاعدة « هيوم » الانجليزى و « كانت » الألمانى و « سپينوزا » الهولاندى

ومنذ القرن التاسع عشر ظهرت تيارات جديدة للفلسفة فى المانيا بدأها « شوپنهور » متأثراً بأفكار أستاذه وصديق أسرته « جوته » وانتهت « بفردريك نيتشه » الذى خرج بالفلسفة عن الدروب المطروقة وتغلغل بها فى سبل حديثة الاكتشاف للفكر البشرى ، وتلاه فى فرنسا « برجسون » صاحب المذهب الاقطارى (Intuition) ولا تزال الفلسفة الأوربية الحديثة واقفة عند هذا الحد الى أن يأتى لها من يأخذ بيدها و يفسح لها مجالاً جديداً بعد أن ينتشلها من وهدة السقوط الذى أدركها فى العشرين سنة الأخيرة ، إذ عدت عليها عوادى المذاهب المادية واستغرقت شهوات البشر ، من طموح الى السيادة وطمع فى السعادة ، جميع قوى الانسان وسدت عليه مسالك الفكر الصحيح وانشبت أظفارها بمواهب العقل السليم

فلا عجب اذا ألحت بنا الحاجة ونحن فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو شبيه بقرن نهضة احياء العلوم والآداب بأوروبا بعد انقشاع ظلمات القرون الوسطى ، الى نشر « تاريخ فلاسفة الاسلام » وشرح مبادئهم لعل فى هذا التحريك ايقاظاً وانعاشاً بعد الرقاد الطويل الذى استولى على المفكرين فى الاسلام من عهد ابن رشد الى وقتنا هذا

محمد لطفى جمعه